عن الموضوع وكيف الامر اذا طلب اليهم الباحث ان يستعيدوا اغاني الحزن التي تقال بمناسبة الوفاة ؟

ويذكر كاتب هذا المقال انه في اول عهده بتناول هذا الموضوع أجرى حديثا مع راوية وكانت امراة بدوية مسنة من بئر السبع ، واخذت الراوية تردد اغاني الحزن وما أن ألقت عدة مقاطع حتى انخرطت في بكاء عميق وقالت ذلك يذكر بأخيها الذي استشهد في احدى الحروب العربية الاسرائيلية . وحصل نفس الشيء مع الفتاة التي عهد اليها بطباعة مثل هذه المادة اذ اثار ذلك اشجانها وجعلها تبكي بصوت عال مسموع . ولكن الامر مع جرانكفيست ربما كان يختلف ، فالباحثة الفنلندية اقامت فترة طويلة في قرية أرطاس مكنتها من أن ترى الاحداث بنفسها وهي هنا في كتابها عن تقاليد الوفاة ـ شأنها في ذلك شأن دراستها للزواج والطفولة ـ تروي لنا احداثا معينة تسمي أصحابها وتصف ما رأته بعينها وتسجل افادات الرواة عند وقوع الحدث .

وتتضمن دراسة جرانكفيست عن تقاليد الوفاة والدفن مقدمة طويلة تتناول عوامل عدة ذات علاقة بالصحة والموت . انها تدرس هنا المرض ومسالة العلاج من وجهة نظر شعبية محضة تستمد مفهومها من معتقدات شعبية متصلة بالدين . ويدور المفهوم الرئيسي حول المعتقد القائل بأن الخير والشر من الله ، وأن الصحة هبة من الله والموت قدر محتوم لا مناص منه . وعندما يقع القدر فان الدواء والطب لا يفيدان في قليل او كثير .

وتوضح جرانكفيست هنا مفهوما للمكان الذي يتوفى فيه الانسان كانت قد تعرضت له عند دراستها لمسالة الطفولة وهو أن المكان الذي سيتوفى فيه الانسان كان قد تقرر في علم الغيب منذ ولادة الانسان . ذلك ان حفنة التراب التي خلق منها الانسان تحضر من مكان الولادة ومن مكان الوفاة . وعندما يتوفى انسان ما في مكان بعيد جدا عن مكان ولادته يقول الناس : « سبحان الله ... اترابانه اخذنه » أي أن هذا الانسان قادته منيته ليموت في المكان الذي أخذت منه تلك الحفنة من التراب التي خلق منها والتي يبدو انها أخذت من ذلك المكان البعيد .

وتتناول الباحثة في التفصيل المسائل المتعلقة بالدفن فتتحدث عن تحضير القبر وملابس الدفن (الكفن) وغسل جسد المتوفي وكل الطقوس المتعلقة بذلك. وهي تذكر تقليدا كان في الماضي مسالة دينية واصبح الان جزءا من التراث الشعبي وهو « اسقاط الصلاة » . ذلك ان هناك احتفالا يقام لاسقاط الصلاة عن الشخص الذي لم يكن ليؤدي الصلوات الخمس في حياته . اذ تجمع اموال أهل المتوفي وحلى النساء وتوضع في كيس وتعطى للشيخ وللجالسين ولكن هؤلاء بعد أن يأخذون النقود يعيدونها لعائلة المتوفي بعد ان يتنازلوا عن حقهم في أخذها .

ثم تتحدث الباحثة عن لحظة الدفن ونزول الملكين واستجوابهم للميت . وتسهب جرانكفيست في الحديث عن حفلات الطعام التي تقام بمناسبة وفاة شخص معين . ويأتي المعزون والمعزيات من القرى المجاورة وهم يقودون حيوانات الذبيح تماما كما يحصل في مناسبات الزواج .

ومن المعتقدات المتعلقة بالوفاة ظهور المتوفي في الاحلام لدى اهله واصدقائه والاعتقاد بسرقة أجساد الموتى وانتقالها من مقبرة الى اخرى حسب الوضعية الدينية للمتوفي . وهناك معتقد شعبي مؤداه ان الاجساد الطاهرة تنقل من مقابرها الى الاراضي المقدسة في الحجاز والعكس بالعكس . وتتناول جرانكفيست بالحديث عن حالات وفاة غير طبيعية مثل الانتحار والقتل العمد ومسائل الثأر .

أما أغاني الحزن فتستأثر باهتمام خاص وكبير من دراسة الباحثة وهي تورد لنا كشفا شاملا وتفصيليا للاغاني الحزينة التي تقال في مناسبة وفيات متنوعة . فهناك أغان خاصة تقال اذا كان المتوفي : ابا او عما او أخا او زوجا او زوجة او جنديا او بطلا او فتاة عذراء او شيخا ... فلكل مقام مقال والاحياء يندبون حظهم ويبكون واقعهم بعد وفاة المتوفي . وبالطبع فان ما يقال يتناسب مع درجة حزن الناس على الشخص المتوفي والفراغ الحاصل في المجتمع بخسارته لشخص معين .

راي في جهود جرانكفيست

تعتبر أعمال جرانكفيست مصدرا عميق الاثر في اية محاولة لدراسة فولكلور الشعب الفلسطيني.